الاصول الثقافية للايديولوجية الصهيونية:
ادب فريشمان وصراع النفس اليهودية

د. ابراهيم البحراوي

عندما انطلقت صيحة الهسكلاه او حركة الاستنارة اليهودية على يد موشي مندلسون (١٧٢٩ ـ ١٧٨٦) لأول مرة العام ١٧٥٠، كانت الحياة اليهودية تسير سيرتها العادية الضيقة بين اسوار الغيتو، وفي حدود مناطق الاستيطان المقررة لسكنى اليهود في بلدان اوروبا الشرقية.

كانت الحياة اليهودية الداخلية خاضعة لسلطة الكهانة وما تمليه من قواعد دينية تسير عليها هذه الحياة، بدءاً من نوع الطعام وانتهاء بعلاقات الزواج.

ويبدو ان الشكل الرئيس للتمرد داخل هذه الحياة كان يأخذ، هو الآخر، طابعاً دينياً. فلقد كان الحلم بالخلاص او الانعتاق كما تسميه المصادر الصهيونية واليهودية يدور حول فكرة ظهور المسيح الذي تبعثه الارادة الالهية ليقود اليهود من حياتهم في الشتات وليعود بهم الى وضع الشعب المقدس في الارض المقدسة.

ولعل ظاهرة المسحاء الدجالين الذين كانوا يظهرون بين الفترة والاخرى تعبر عن هذا الشكل الرئيس من اشكال التمرد في حياة اليهود داخل الغيتو. فلقد كانت اعداد كبيرة من جماهير الغيتو تتبع هؤلاء المسحاء الى ان يثبت كذبهم.

ولو شئنا ان نستخلص الدلالة الجوهرية من هذا الشكل لرجحنا ان يكون معناها هو ثبات الطابع الديني في حياة الغيتو وسيطرته على اذهان اليهود في حالتي الاستقرار والتمرد.

وضد هذا الطابع الديني بالذات انطلقت صرخة الهسكلاه على يد مندلسون. فلقد اتجه نضال مندلسون، ومن تبعه من مفكري الهسكلاه وادبائها، الى تحطيم الاسوار الخارجية للغيتو، والتي تحبسهم عن الاتصال بالعالم الخارجي وتعزلهم عما فيه من فلسفات ومعارف حديثة تتجاوز الشكل او النمط الديني في ممارسة الحياة.

وعندما نتأمل افكار مندلسون في كتابه الشهير «الانعتاق»، فاننا نلاحظ ان مندلسون لم يكن معادياً لجوهر القيم الدينية الاخلاقية، ولا للافكار والعقائد الميتافيزيقية في الدين، مثل افكار الالوهية وخلود الروح. فلقد كان مندلسون يسلِّم بهذه المعتقدات، ولهذا أقدمَ على ترجمة اسفار التوراة الخمسة الى اللغة الالمانية.

لكن نضال مندلسون كان متجهاً، بالدرجة الاولى، الى تحطيم اسوار الغيتو الخارجية ليصل ما بين رافد الحياة اليهودية الخامل والراكد وما بين التيار المتدفق والمتدافع لحياة البشر خارج